

ملخص (3) / علم اللغة الحديث

نبذة عن تاريخ الدراسة اللغوية :

نشأة الدراسة اللغوية : عرف الإنسان اللغة منذ عصور بعيدة جداً تعود إلى نشأته على هذا الكوكب. وعلى الرغم من تعايش الإنسان الطويل مع هذه الظاهرة التي تعد من أبرز ظواهر النشاط الإنساني إلا أنه لم يفتن إلى مدى اتساعها وشدة تعقيدها، كما لم يلتفت إلى التفكير في طبيعتها ومقوماتها تفكيراً علمياً مركزاً. فمن المؤكد أن استخدامه للغة وتعامله معها قد سبق بكثير عمليات النظر المقتن فيها أو تأمل ما تقوم عليه من نظم.

وعلى الرغم من احتواء بعض النقوش القديمة في الهيروغليفية والسومرية والآشورية على إشارات إلى وجود المترجمين والمعاجم إلا أنه لا يوجد ما يدل على وجود دراسات لغوية من أي نوع كان قبل القرن الرابع قبل الميلاد. فالى هذا التاريخ تعود أقدم دراسة لغوية معروفة حتى الآن وهي عبارة عن كتاب في قواعد اللغة السنسكريتية للغوي الهندي بانيني. وقد كان لهذا الأثر الذي اكتشف على يد سروليام جونز Sir William Jones (1786م) أثر كبير على الدراسات اللغوية اللاحقة كما سنرى فيما بعد.

ولعله من الممكن لنا عند التفكير في بداية الدراسات اللغوية أن نعد اكتشاف الكتابة بوابة أولى للدخول إلى أوليات المعرفة اللغوية. ولاشك أن من يتأمل تاريخ الكتابة وقصة تطورها سيدرك إلى أي مدى كانت الكتابة معينة على فهم بعض الجوانب الرئيسية في اللغة نفسها. فانتقال الكتابة من الرسم والتصوير (الذي يعبر عن الأفكار والكلمات) إلى الرموز الدالة على الصوت المفرد يعد نقلة معرفية كبيرة تقوم في أساسها على معرفة لغوية متقدمة جداً مقارنة بالمرحل السابقة.

وهذا يمثل (انطلاقة التفكير اللغوي الأولي، فليس من السهل أن يفهم الإنسان العادي أن الكلمة تركيب ضوئي أو يفكر بذلك.

وليس من السهل أن يقطع هذه الكلمة إلى مقاطع صوتية، وليس من السهل على الإنسان العادي أن يجرد الكلمة من أصواتها ويميز الصوت الواحد من الآخر. فهذا كله نتيجة تفكير لغوي عميق، لا يتوصل إليه كل إنسان، بل لابد من قطع مراحل فكرية طويلة حتى يتوصل إليه الإنسان المفكر بامعان وجدية".
الأبجدية/ أحمد هبو (ص 8).

بشكل عام نستطيع أن نقول بأن اهتمام الإنسان باللغة واتجاهه لدراستها كان وليد حاجات متشعبة (مثل الاتصال من خلال الرسائل، وتسجيل الأفكار والمعتقدات، ورصد العلوم والمنجزات الثقافية وإيصالها إلى الأجيال اللاحقة، إلخ)، وأن الكتابة كانت تمثل الاستجابة الأولية الأمثل لتلك الحاجات، وأن الرغبة في تجويدها وإتقانها أسهمت في تعميق فهم الإنسان للغة إلى حد بعيد.

وفي هذا الإطار العام لحاجة الإنسان إلى دراسة اللغة وفهمها يأتي دور الدين. ونضرب هنا مثالين لهذا الجانب : الأول من الثقافة الهندية والثاني من المجتمع العربي الإسلامي في عهده الأولي. فقد نشأت الدراسات اللغوية المتعلقة باللغة السنسكريتية مدفوعة بعوامل دينية هدفها الحفظ الدقيق للغة وتحقيق الأداء السليم للطبوس والشعائر الدينية الذي يجب أن يتم بلغة صحيحة غير محرفة. ولعله بسبب من هذا تفوقت تلك الدراسات اللغوية في المجالين الصوتي والنحوي. والأمر نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للدراسات اللغوية العربية بعد ظهور الإسلام حيث تمحورت بشكل رئيسي حول النص القرآني بهدف فهمه وتفسيره والمحافظة عليه.

الدراسات اللغوية القديمة :

لمحة تاريخية :

- الإغريق (اليونان) : كانت الدراسة اللغوية في هذا العهد متأثرة بالفلسفة والمنطق إلى حد كبير. ومن هنا كانت تبحث في قضايا مثل ماهية اللغة وأصلها، وماهية الكلمة والعلاقة بينها وبين مدلولها، ومدى التطابق بين قواعد المنطق وقواعد النحو. وقد اشتهر من أفكارهم عن طبيعة اللغة اتجاهان، أحدهما يعود إلى أفلاطون القائل بأن الأصوات والكلمات جزء من المعاني، والثاني لأرسطو الذي يرى بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأن الأصوات ليست سوى رموز اصطلاحية للمعاني. ولم توضع قواعد اللغة اليونانية إلا في القرن الثاني قبل الميلاد وكانت قواعدهم معيارية تضع القوانين لمستوى كلامي لم يعد مستخدماً في ذلك الوقت، وتحاول أن تفرض تلك القواعد على المتعلمين (اللغة المدروسة هي لغة القرن الرابع قبل الميلاد).

وقد سار الرومان بعد ذلك على نهج اليونانيين في الدراسة اللغوية من حيث الاعتماد على الفلسفة والمنطق وتغليب الجوانب المعيارية. ووضعوا نحواً للغة اللاتينية على غرار النحو اليوناني مرتكبين بذلك خطأ منهجياً واضحاً (تطبيق قواعد اليونانية على لغتهم). (أنظر كتاب دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن).

- الدراسات اللغوية العربية :

من المرجح كما أشرنا سابقاً أنها قامت بدوافع دينية تتعلق بفهم القرآن وتفسيره والمحافظة عليه. وتتمثل بدايتها الأولى فيما قام به اللغويون الأوائل من تدقيق الكتابة الذي أدى في النهاية إلى تطوير نظام الكتابة العربي إلى الشكل المستخدم حالياً. (من أبي الأسود الدؤلي إلى الخليل بن أحمد).

ثم ظهرت محاولات ل لكشف عن الأسس التي يقوم عليها الكلام العربي (عيسى ابن عمر الثقفي (149هـ) وأبو عمر وابن العلاء (154هـ) وغيرهم). ثم امتدت الدراسات اللغوية لتغطي الكثير من جوانب اللغة (الصوت، التركيب، الصرف) وبخاصة الجانب الصوتي (أنظر الجزء المصور من مجلة الدراسات اللغوية).

ومع أن نشأة الاهتمام بهذه الجوانب بدأت على يد علماء القراءات (وكثير من النحاة الأوائل كانوا من المهتمين بالقراءات) إلى أن وصلت إلى ذروتها على يدي العلمين المشهورين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) وسيبويه (188).

ومن المرجح أن المنهج الذي سلكته الدراسة اللغوية العربية في البداية كان منهجاً وصفيّاً، ولكن الأجيال اللاحقة من علماء اللغة ودارسيها توقفوا في أغلب الأحيان عند حدود القضايا والأفكار التي تضمنها الكتاب الفريد الذي ألفه سيبويه، وأعادوا إنتاج الكثير منها دون تغيير أو إضافات مهمة. كما غلب عليه المنطق في العصور المتأخرة مما أدى إلى جفاف الدراسات النحوية.

وترد في هذا الجانب مسألة المنهج المتبع هل هو وصفي خالص؟ وهل هو متأثر بالمنطق اليوناني أم أنه إبداع أصيل؟ (أنظر بحث لإبراهيم مذكور بعنوان : "منطق أرسطو والنحو العربي"، وبعض التفصيلات الأخرى لدى إبراهيم أنيس" من أسرار اللغة ، ص 62).

وتتمثل أبرز منجزات الدراسة اللغوية العربية في مجال المفردات:

- المفردات في موضوع معين (كتاب الشجر، كتاب الخيل إلخ).
- الألفاظ الغربية (غريب القرآن، غريب الحديث، حوش الكلام).
- الأضداد والترادف والاشتراك اللفظي (أنظر كتاب إبراهيم أنيس "دلالة الألفاظ" (ص : 210 - 220).

- الدخيل والمعرب (المعرب للجواليقي).

- المعاجم العامة وأولها كتاب العين.

وإضافة إلى الجوانب السابقة فقد امتدت اهتمامات اللغويين إلى الجوانب البلاغية في اللغة حيث اهتموا بفصاحة الكلمة وجماليات الأسلوب. ويغيب على الدراسات اللغوية في هذا الجانب التأثير الكبير بالمنطق اليوناني.

كما تطرقت الدراسات العربية إلى القضايا المتعلقة بنشأة اللغة (ابن جني، وأبو علي الفارسي). وأخيراً نشير إلى التأليف في طبقات النحويين.

مراجع :

- أحمد مختار عمر (البحث اللغوي عند الهنود) (البحث اللغوي عند العرب).
- إبراهيم أنيس (دلالة الألفاظ، من أسرار اللغة).
- النحو العربي والدرس الحديث / عبده الراجحي.

اللغويات التاريخية :

اللغويات المقارنة :

اللغويات الحديثة :

بدأت انطلاقة دراسة اللغة على أسس علمية مع ظهور كتاب اللغوي السويسري (دي سوسير) المسمى بـ "محاضرات في علم اللغة العام" في العام 1916م. وقد جمعه تلاميذه مما كان يلقيه عليهم من محاضرات ونشر بعد وفاته بثلاث سنوات. ولم يجد هذا الكتاب رواجاً مباشراً ولكنه لم يلبث أن لقي اهتماماً كبيراً فيما بعد وأصبحت أفكاره أساساً للعديد من التوجيهات الحديثة. فهو يعد نقطة تحول هامة وحاسمة في تاريخ الدراسة اللغوية.

المؤثرات :

جاءت أفكار دي سوسير في معظمها بعد النظر والمعاشية للمناهج التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر والتي غلب عليها الطابع التاريخي والمقارن. وقد كان سوسير في بداية حياته العلمية واحداً من اللغويين التاريخيين، ولكنه تحول عن هذا الاتجاه وأقام رؤيته الجديدة على نقده. وقد كانت معاصرته لعالم الاجتماع (دور كايم) Emile Durkheim واتصاله به من العوامل الرئيسية في تحوله عن المنهج التاريخي ودعوته على دراسة اللغة دراسة علمية.

ومن أفكار دور كايم التي لفتت انتباه دي سوسير :

1 - الوقائع الاجتماعية هي "أشياء" ، ويمكن دراستها كما تدرس "الأشياء" في العلوم الطبيعية.

2 - الوقائع الاجتماعية ذات طبيعة عامة، وليست فردية.

3 - يمكن أن ينظر إلى اللغة على أنها "شيء"، وعلى أنها عامة وليست فردية.

ومن أهم ما توصل إليه سوسير هو أن اللغة (كموضوع للبحث العلمي)

تتألف من أجزاء على النحو التالي :

1 - جزء يمثل النظام النظري (المجرد) الذي تختزنه اللغة للعلاقات التركيبية التي يعرفها (ضمنياً) أبناء المجتمع الواحد. وسماه *langue* (اللغة).

2 - وجزء آخر يمثل الإنتاج الفردي للكلام ويمتاز بأنه لا ينتج بنفس الشكل في كل مرة يحدث فيها الكلام. وسماه (*Parole*) كلام.

ويشبه هذين الجزئين بالسفونية حيث تحتوي على :

- جزء مكتوب ثابت لا يتغير، ويقابل *Langue*.

- بالإضافة إلى الأداء الفعلي الذي لا يمكن أن يكون متطابقاً في كل مرة

يحدث فيها، ويقابل *Parole*.

ويشير سوسير إلى أن الجزء الصالح لدراسة اللغة دراسة علمية هو ما يسمى بـ (Langue) لأنه يحمل مقومات النظام الأساسية المخترنة في الوعي والمشاركة بين أفراد المجتمع اللغوي.

ومن القضايا الهامة الأخرى التي طرحها دي سوسير : التفريق بين الدراسة التزامنية للغة، Synchronic والدراسة التتبعية / التاريخية diachronic . فالأولى تشير إلى دراسة اللغة في حالة مستقرة ومحدودة من حيث الزمان والمكان (وقد عرف هذا النوع من الدراسة بالمنهج الوصفي)، بينما يشير المصطلح الثاني إلى دراسة اللغة عبر مراحل تاريخية وبيئات جغرافية واسعة ومتباعدة (ويعرف هذا النوع من الدراسة بالدراسة التاريخية).

وقد ميز دي سوسير بين الدراسة الوصفية والدراسة المعيارية للغة سواء من حيث المنهج أو من حيث مواصفات المادة والعينات اللغوية المدروسة. فالدراسة الوصفية ليس فيها تفضيل لمستوى لغوي على آخر بل تعتمد على ما هو مستخدم بالفعل. أما الدراسة المعيارية فتنتقي مستوى أو نموذجاً لغوياً محدوداً من اللغة، عادة ما يكون أدبياً، وتقوم بدراسته وتحليله لاستخدامه مثلاً يحتذى ومعياراً يرجع إليه للتفريق بين الصواب والخطأ.

ومن المفاهيم العامة الأخرى التي خلفها دي سوسير وأصبحت تعد من العناصر الهامة للدراسة العلمية للغة ما يلي :

- اللغة ظاهرة حية.
- اللغة تقوم على أنظمة متشابكة (الصوت/الصرف/التركيب/الدلالة).
- اللغة ظاهرة اجتماعية.
- أسبقية المنطوق على المكتوب.